

القصص

الى الواحات الخارجة

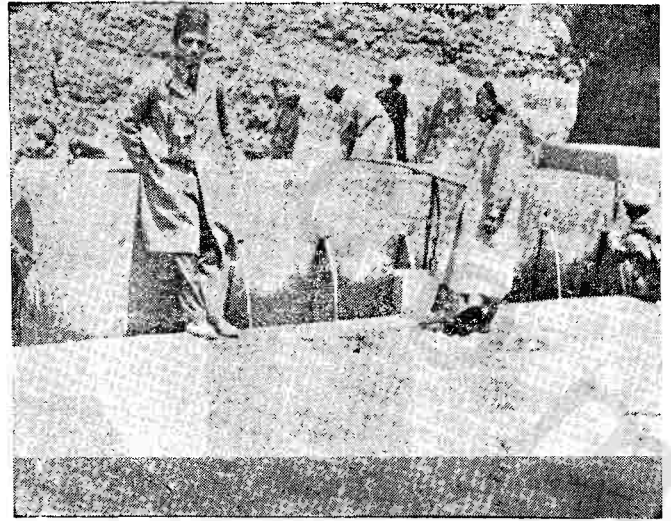
جنة الصحراء الغربية

(وجزيرة الناعمين) في عرف قدماء المصريين

للاستاذ محمد ثابت

تتمه

ولا تكاد تفتح عين جديدة الارأيت آثار الرومان فيها فيجدون حفرها . والعين ملك لمن جد في البحث عنها وقام بتطهيرها ، وبسأهم كل فيها بنسبة ما بذل من مجهود ومال ، وعلى هذه النسبة يستنتج جزءا مما جاورها من الارض ، والحكومة لا تنقاضي الضرائب على مساحة الارض المنزرعة فالناس أحرار يزرعون ما أرادوا منها ، لكن الضريبة تجب على طاقة العين بغض النظر عما يزرع حولها . فأذا ما ظهرت عين جديدة تشكل لجنة حكومية ثم يسوى مكان عند منفذ العين توضع في نهايته عارضة خشبية بعرض القناة فتعترض الماء الذى يطغى عليها ويتدفق فوقها ثم يقاس عمق هذا الماء فوقها



العين الجارية يستقى منها الأهليون

وبحسب غزارته تقدر قوة العين قيراطا أو بعض قيراط . والضريبة نصف جنيه عن كل قيراط ، ومن العيون ما هو أقل من

قيراط ومنها ما يبلغ عشرات القيراط وفي ناحية باريز أكبر عيون الواحات وقوتها من ٥٨ الى ٦٠ قيراطا ، ويقال انها وحدها تستطيع رى مئات الفدادين ، لكن أصحابها لا يستطيعون استغلالها كما يجب ، لذلك تجمع من مائها الفائض مستنقع يمتد عشرات الكيلومترات كثر به البط والطيور المائية ، ولذلك يقصده الكثير وبخاصة الموظفين للهوى والصيد

وتقسيم ماء العين بين الشركاء عجيب أيضا ، فان كان الملاك ثلاثة قسموا القناة الخارجة من منفذ العين ثلاثة أقسام ، يجب أن تكون متلاصقة خيفة تبدد الماء بالرشح فيجرى نصيب كل مالك الى أرضه التى يشترط أن تكون مجاورة لأرض باقى الشركاء ، وألا تزيد مترا واحدا عنهم ، ويجب أن يزرع الجميع نوعا واحدا من الغلات ، وإذا لم يسعف ذاك التقسيم كل حقل قسموا الرى بالساعات ، فقلان يروى عددا من الساعات مناسبا لنصيبه ، وبعد ذلك يحى دور صاحبه ، وهكذا وإذا إقبل المساء ووقف الرى خيف على الماء الدافق من التهديد لذلك يرسل الماء الى مستودع فسيح يدخر فيه الى الصباح حين يروى الشركاء منه على النظام السالف الى أرضهم المنخفضة عن مستوى ذاك المستودع ، والأرضى حول العيون مدرجة الانحدار كي يصبح الرى ممكنا ، وكثيرا ما كنت ارى المجارى المتقاطعة يسير فيها الماء بعضه فوق بعض مسافات طويلة كل يستمد من عين خاصة به

وكلما مضت السنون على العين ضعفت لكثرة ما يتجمع حولها من رمال فيعاد تطهيرها ، وكثيرا ما تقارب العين النضوب او ينفد ماؤها ، والعادة انه كلما خرج نبع جديد أغاض ماء غيره أو انضبته واهم الزراعات : الأرز عماد غذاء الأهليين وهو صغير الحب اسم اللون لكنه ألذ طعما من رزنا ، وهو فى الطبخ ينتفخ فيزيد حجمه كثيرا ، ولعل أكبر مميزاته محصوله الوفير فتوسط غلة الفدان بين ٢٠ و ٣٠ أردبا ، وفى الارض الجيدة يغل أربعين ، على أنه يمكن فى الأرض سيعة شهور ، ولعل جودة ذاك المحصول العجيب راجعة الى كثرة الجهد الذى يعاينه القوم فى خدمته ، فزراعته تتطلب عناية عظيمة من ذلك : بل البذور بالماء الساخن وبذرهما ونقل النبت وهو

بالغلال عند بدء حصدها، والتجار يحتزنون تلك الغلال ليبيعوها للقوم ثانية اذا نضب معينها عندهم ولقد أسرفوا في تلك العادة حتى قيل أن الشاى أ تلف كثير امن صحتهم وما لهم لأنهم اذا شربوا عمدوا الى الماء المغلى فصبوه على الشاى الذى يشغل بين نصف القدر (الغلاية) وثليه لذلك يصبح منقوعه أسود غايظا ثقيلا ويتناوله حتى صغار الاطفال . وتكرر تلك العملية في مجلس الشاى ثلاث مرات، والناس يتناولون الشاى أربع مرات في كل يوم : عقب الاكلات الثلاث مباشرة ، والمرة الرابعة عند الاصيل ، ولا يروقههم الشاى الخفيف قط ، لذلك ترى الواحد منهم يضع قطرة منه على ظفره ثم ينكسه فان سقطت نفر منه ولم يشربه فهو لا يستملحه الا اذا حاكى العسل الاسود والعجيب أنهم يحلون ذلك بمقادير كبيرة من السكر . وأذكر انى أخذت صورة عجوز تناولها قرشا فرجتى أن اشترى لها به بعض الشاى والسكر



شارع : أعجب ما به الطنوف من سعف النخل

بدل النقود وأرسلت خلفى صبيها ليحمل ذلك اليها وأجمل مناظر الواحة تجلى في بسايتها اليانة تحيط بها أسوار وطيشة من الطين تحفها من اعلاها حقوف النخيل وتخللها ابواب من الجريد صغيرة وبين تلك البساتين تمتد الطرق وتنساب قنوات الماء الدافق من العيون المجاورة ، وأعظم غلات البساتين البلح والمشمش وكذلك البرتقال وهو من احسن الانواع حجما وطعما

صغير من بؤرة في الاض الى غيرها وتلك العملية تتطلب المثابرة حتى يقارب النضج ، أضف الى ذلك استئصال الطفيليات ، وفي الشهر السابع يبدأ الحصاد وخلال كل أولئك ينشر الفلاح السماد على الارض أولا من روث البهائم ، وأخيرا من فضلات المراحيض ، فتراهم جميعا يوالون رعى رماد (القرن) في مرحاض البيت كل يوم واذا ما انتهى العام جمع كل ذلك سمادا قويا يعاون على أنبات الأرز . وكلما حسنت الخدمة زاد طول السنبلة فحوت بين ٩٠ و ١١٠ حبة وضوعف المحصول وقد يبلغ الخمسين أردبا ولذلك يجرى على سنتهم جميعا المثل القائل : (قل زرعك وأكرمه) . وبعد تمام رى الأرز ينصرف الماء الى المنخفضات لاستخدامه في رى القمح وهو الغلة التى تزرع بعد الأرز في الأرض الجيدة وحوها في الأراضى الرديئة يزرع الشعير ومحصولها دون محصول أرض الريف .

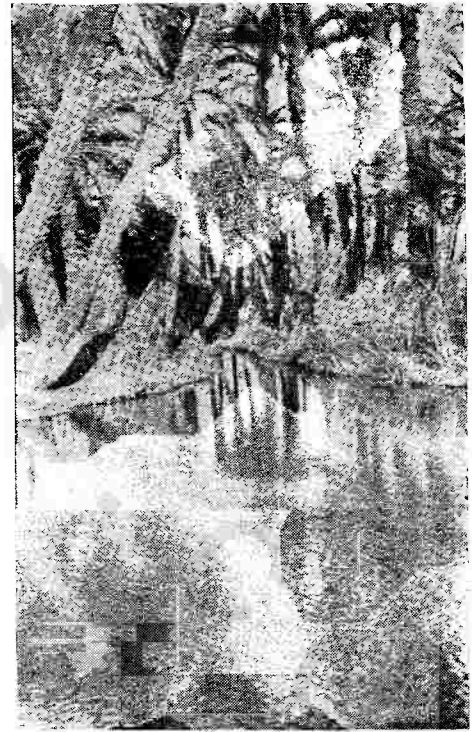
ولما كانت زراعة الأرز أساسية ومدة ، طويلة وهو يتطلب ربا مستديما كثرت لذلك النقائع أغلب العام ، فعاون ذلك على نشر البعوض وبخاصة في أغسطس وهدد بالملايا التى كثيرا ما تنتشر هناك ، ولذلك حاولت الحكومة منع زراعته والاستعاضة عنه بالأرز السبعينى لقصر مدته ، ولما جربه القوم أنكروه بتاتا وذلك لقلة محصوله .

وكم أعجبت بنزعة القوم الى التعاون في جل أعمالهم ! ففى الزراعة مثلا لا يلجأون الى إستئجار العمال خصوصا في موسم الحصاد ؛ بل ترى فريقا ينتقل بكامل عدده الى حقيل الفريق الثانى وينجزون أعمال الحصاد متعاونين ، وهؤلاء يقومون بدورهم في معاونة الفريق الأول إذا حل ميعاد العمل في منطقتهم ، وتلك طريقة إقتصادية تبعث على العمل بنشاط وسرعة لا تتوافر في المأجورين ، والناس هناك هادئو الطباع معروفون بالأمانة حتى أن صاحب النزل كان يترك الفندق مفتوحا بغير حراس رغم وحشة الليل وبعد المكان عن المدينة لأنه واثق أن ليس بين الناس من يحاول السرقة

غذاؤهم ومشربهم : وعماد القوم في الغذاء الأرز يأكلونه مسلوقا ويضع الفقير عليه الزيت والغنى المسلى وأحيانا يدق الزيتون كله ثم ينخل ويحاط سائله الزيتى الاسمر بالأرز فيكسبه لونا أسود وطعما لذذا ، وكثيرا ما يطبخ الأرز باللبن والملح . والأرز أساس وجبة الإفطار في الصباح والعشاء مساء . وهذه أهم الوجبات لديهم - يطهى فى أوان كبيرة من الفخار أو النحاس . أما الخبز فلطعام الغذاء وهى أقل الوجبات أهمية يتناولونها في الحقول خارج بيوتهم .

ومن أشهر الاشياء لديهم الشاى والسكر والطباق ، فهم يتناعونها

ومن أخطر ما يعاينه القوم طغيان الرمال على البيوت والبساتين والينابيع ، لذلك تراهم يحثلون لمقاومتها ، فالعيون يقام حولها بناء اسطوانى ، أو فى زاوية مدببة حتى لا يتجمع الرمل خلفها ويظمرها . ويغلب أن يزرعوا خلفها صفا من الشجر وبرغم ذلك يغلبهم الرمل ، وكلما احاط بالشجر أو النخل استمر هذا فى نموه السريع وعلا حتى إذا ما بلغ نهاية نموه طمرته الرمال فاخفى وعندئذ يهاجر القوم الى ناحية أخرى ، وكثيراً ما حدث ذلك فى ناحية (جناح) من بلدانهم ، وقد يطغى الرمل على البيت فأن قارب نهاية علوه فتح صاحبه فى جداره بعض النوافذ فيتسرب الرمل الى داخل البيت ويسده ثم يبنى الرجل طابقاً جديداً فوق الأول ليسكنه ، وقد يتكرر ذلك الى الطابق الخامس والسادس ، وقص على القوم أنه حدث مرة أن سيدة فى المكس من قرى باريز أنامت طفلتها داخل البيت ولما عادت وجدت الرمال قد تسربت من ثقب فوقها فظمرتها وماتت . وهناك بعض الكشبان الزاحفة على المدينة قاس الناس سرعة تقدمها فكانت مترافى كل شهر



نبيع ينساب ماؤه الى الحقول

ومن الحشرات الخيفة هناك العقارب ، فهى توجد بكثرة مروعة على أن ضررها قليل ويظهر أن سمها أخف من سم العقارب التى فى بلاد الصعيد ، وفى بعض القرى هناك كالمكس لا تكاد ترفع قطعة من الطوب الا وترى أسفلها قد افترش بالعقارب ، لذلك ترى

الاهلين جميعا اذا اقبل الليل خرجوا الى كشبان الرمل العالية وأمضوا ليلتهم فيها ولا يجرؤ احدهم أن يدخل الدار طيلة الليل خشية لدغاتها وما هو جدير بالذكر وبالاعتباط ما شاهدته من عناية محافظ الواحات بصالح الناس ، فهو دائماً يفكر فى خدمتهم وزيادة مواردهم ، وقد أنشأ قسماً مستحدثاً فى المدينة طرقة نظيفة مرصوفة تحفها الاشجار ، وقد افتتح الطريق الى اسوان لأول مرة ، عاون على فتح الطريق الى اسبوط فقطعته السيارة فى سبع ساعات وهناك طريق معبد الى الواحات الداخلة تقطعه السيارات فى ست ساعات ، وآخر يسير شمالاً الى مرسى مطروح . والمحافظ جاد فى بناء مسجد فاخر فسيح الرحاب أحاطه بالمتنزهات

والمستمد العام لماء الشرب نبغ احاطته الحكومة بالبناء تتخلله الانابيب والصنابير وذلك محافظة على نظافة الماء ان تلوثه الاوساخ وتعبث به الايدي ، يملأ منه السقاءون قربهم والفتيات جرائهم وهى مستطيلة الشكل كى تحملها الفتيات تحت اذرعهن لافوق رؤوسهن . والاوانى من اخص صناعتها ، وكذلك ضفر الأطباق والآنية من سعف النخيل يزينه نقش من الوبر والصوف الملون الجميل

ومجهود القسم الطبى هناك عظيم ، يقوم الطبيب بالعلاج ويصرف الدواء مجاناً ويعالج المرضى فى مستشفى كبير زود باحدث الوسائل وهو فى ناحية من المدينة بولغ فى تجميلها وتنسيق حدائقها ذلك بعض ما شاهدته فى الواحات الخارجة التى ستظل ماثلة أمامى اذ كرها بالخير دائماً . ولقد أسفت لاني لم أستطع زيارة الواحات الداخلة التى يقول عنها جيرانها بأنها أعم خيراً وأفسح مدى ، سكانها يناهزون ثمانية عشر الفا ، أعنى ضعف سكان الخارجة وانى لأرجو ان أوفق الى زيارتها فى يوم قريب .

محمد ثابت

محمود سليم

صاحب المكتبة المصرية

مترجم ببيع وتوزيع عموم المجلدات
والجرائد المصرية والسورية فى العراق